الحنيفية وشعراؤها في العصر الجاهلي

إنَّ مَنْ يبحث في أخبار العرب ، قبل الإسلام ، يجد كثيراً منهم قد أشركوا بالله ، وأضحى تعدد الآلِهة لديهم اعتقاداً متيناً . ولكن هل يعني ذلك أن دين إبراهيم عليه السلام قد نُسِـيَ تماماً ؟ وأن عقيدته التوحيدية تلاشت ، فلم يبقَ في العصر الجاهلي إلا الوثنية والشرك ؟

لقد أمدتنا المصادر القديمة بروايات وأخبار وأشعار تنص على أنه قد وُجِدَ نفر من العرب الجاهليين رفضوا عبادة الأوثان ، ولم يقبلوا بتعدد الآلِهة ، واتجهوا إلى عبادة الله وحده ، ذلك الذي كان متفرداً بالعبودية قبل انتشار الشرك وعبادة الأصنام . وقد دُعي هؤلاء بالحنفاء ، وظهر منهم شعراء عبروا عن عقيدتهم أصدقَ تعبير ، وعن تمسكهم بما تنامى إليهم منها عن إبراهيم الخليل .

ولكن علينا ـ قبل أن نعرض لأولئك الشعراء ـ أن نعرف ما المقصود بالحنيف والحنيفية ، لكي ندرك المعاني والصور التي أتى بها الشعراء الحنفاء .

ــ الحنيفية والحنفاء :

جاء في «اللسان» أن الحنيف لغةً هو المائل من خير إلى شر ، أو من شر إلى خير ، والجمع : الحنفاء . وحَنَفَ عن الشيء وتحنَّفَ : مال ، والحنيفية : الميل[1] .

وقد تعددت أقوال العلماء في المعنى الاصطلاحي للحنيف ، غير أن معظمهم أجمع على أن الحنيف هو من بقي على دين إبراهيم ، فحجَّ البيت ، واعتزل الأصنام ، وتعبّد لله[2] . وقد ورد ذكر الحنيف ، بهذا المعنى ، في قول أبي ذُؤيب الهُذَلي[3] :

أقـامـتْ بـه كمقـام الحنيـ ـفِ شَهرَيْ جُمَادَى وشَهْرَيْ صفَر

كما ذُكر التحنّف بمعنَى التعبّد عند جِران العَوْد ، في قوله[4] :

وأدركْنَ أعجازاً من الليل بعدَما أقـام الصلاةَ العـابِدُ الـمُتَحَنِّفُ

وورد أيضاً أن الحنيفية هي الميل عن اليهودية والنصرانية والتمسك بدين إبراهيم عليه السلام(٥). وجاء في «السيرة» أن اليهود كانت تدّعي أن إبراهيم كان على دينها ، وأن النصارى كانت تدّعي أنه على دينها(٦)، فنزلت الآيات القرآنية لتنفي ادعاء الفريقين ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ ماكانَ إبراهيمُ يهودياً ولا نصرانياً، ولكن كان حنيفاً مسلماً ، وما كان من المشركين ﴾(٧). وفضلاً عن ذلك فإن الآية تنفي أيضاً أن يكون إبراهيم عليه السلام من عبدة الأوثان الذين أشركوا بالله .

ويبدو أن بعض الجاهليين كانوا يعدُّون عبادة الأوثان انحرافاً عن دين إبراهيم الحنيف ، فمن ذلك ما نُسِب إلى أمية بن أبي الصلت(٨):

كُلُّ دِيْنٍ يومَ القيامةِ عند الله   إلاّ دينَ الحَنيفةِ بُورُ

ولما قامت قريش لمحاربة الرسول ﷺ انبرى أبو قيس بن الأَسْلَتِ يدافع عنه ، على الرغم من عدم إسلامه ، مذكراً قريشاً بحرمة مكة التي يأمن فيها الإنسان والحيوان ، وداعياً إياهم إلى العودة إلى دين إبراهيم الحنيف(٩):

أُعيذكم بالله من شرِّ صُنْعِكُمْ   وشَرِّ تَباغِيكُمْ ودَسِّ العَقَاربِ
فذكِّرْهم بالله أولَ وَهْلَةٍ   وإحلالِ أحرامِ الظباءِ الشوازبِ
أَقِيمُوا لنا دِيْناً حنيفاً فأنتم   لنا غايةٌ قد يُهْتَدَى بالذّوائبِ

وتؤكد أكثر الآيات القرآنية التي جاء فيها ذكر الحنيف أنه من كان على دين إبراهيم عليه السلام ، وأخلص في عبادة الله وحده ، فلم يشرك به شيئاً(١٠).

ومما تقدم نجد أن الحنفاء ليسوا يهوداً ولا نصارى ولا وثنيين مشركين ، وإنما هم أولئك الذين بقوا على عقيدة التوحيد التي دعا إليها إبراهيم الخليل ، فرفضوا عبادة الأوثان وأخلصوا التعبد لله وحده ، وقد ظهر ذالك جليًا لدى أبرز شعرائهم زيد بن عَمْرِو بن نُفَيْل ، وأمية بن أبي الصلت ، وأبي قيس بن الأَسْلت .

ــ زَيْدُ بن عمرِو بن نُفَيْل :

لقد أجمعت معظم الروايات على أن زيداً كان في مقدمة الحنفاء الذين اعتزلوا

عبادة الأوثان ، وتعبّدوا لله وحده . ورُوي أنه بحث عن عقيدة التوحيد في اليهودية والنصرانية ، فلم يطمئن إليهما ، وظل متمسكاً بما ورد إليه من دين إبراهيم عليه السلام ، حتى قُتِل قبيل الإسلام ، بعد أن لقي أذى كثيراً من قومه[١١].

وأهم ملامح عقيدة التوحيد تظهر فيما تبقى من أشعاره ، فمن ذلك قوله[١٢] :

أربّـا واحـداً أم ألـف ربٍّ أدِيـنُ إذا تَقَـسَّمتِ الأُمُـورُ؟
عَـزَلْتُ الـلاَّتَ والعُـزَّى جميعـاً كـذالِك يفعـلُ الجَلْدُ الصَّبُـورُ
فـلا العُـزَّى أَدِينُ ولا ابْنَتَيْهَـا ولاَ صَنَمَيْ بني عَمْـرٍو أزورُ
ولا هُبَـلاً أدِينُ وكـان رَبًّـا لنا في الدهر إذْ حِلْمي صغيرُ

فهو يعتقد أن الله ربٍ واحد لا نِدَّ له ولا نظير ، لذلك اعتزل عبادة الأوْثان والأَصْنام ، سواء أكانت اللات أم العُزَّى أم هُبَل ، أم سائر الأصنام الأخْرى . وفي البيت الأخير يشير إلى أن العقل هو الذي هداه إلى اليقين ؛ وذلك حينما بلغ أشده ، ونضج تفكيره ، وتعمق نظره ، فرفض تَعَدُّدَ الآلِهة ، ورفض أن يخضع لما عليه القومُ والآباءُ ، ولجأ إلى عبودية واحدة لله تعالى .

ويَبْدُو أنَّ ديانة إبراهيم عليه السلام لم تكن واضحة تماماً في ذهنه ، بما تنطوي عليه من عبادات ومناسك وشعائر ؛ لذلك كان يُسلم أمره لله رب الكعبة ، قائلاً[١٣] :

عُـذْتُ بمـا عـاذَ بِـهِ إبـراهِمُ مُسْتَقْبِـلَ القِبْلَةِ وَهْـوَ قَـائِم
أَنفِـي لـك اللَّهُمَّ عـانٍ راغِمُ مهـما تُجَشِّمْنِي فـإني جـاشِم

كما رُوي عنه أنه كان يقول : (اللهم ، لو أني أعلم أيّ الوجوه أحبّ إليك عبدتك به ، ولكني لا أعلمه) ، ثم يسجد على راحته[١٤].

ــ أمية بن ابي الصَّلت :

من الشعراء الحنفاء أيضاً أمية ، وهو شاعر من ثَقِيف ، نظر الكتب وقرأها ،

وتجنّب عبادة الأوثان ، وتمسك بالحنيفية ديانةِ إبراهيم الخليل ، ومن المعتقد أنه ظل حتى مجيء الإسلام ، وبقي متمسكاً بعقيدته فلم يسلمْ[١٥]، ومات على الأرجح في السنة الثانية للهجرة[١٦].

وملامح الحنيفية ظاهرة في شعر ابن أبي الصَّلت ، الذي كان له حظ وافر من الحفظ ، أكثر من سائر شعر الشعراء الحنفاء . ولا شك في أن شعراً كثيراً قد نُحِلَ عليه ، بَيْدَ أننا إذا بحثنا في شعره ، المرجح أنه موثوق ، نجد مادة تشير إلى أنه كان رافضاً الوثنية ، مؤمناً بإله واحد لا شريك له ، معتقداً أنه باقٍ على دين إبراهيم التوحيدي ، وذلك على شاكلة قوله[١٧]:

الحَمْـدُ لله مُمْسَانـا ومُصْبَحَنَـا ... بالخير، صَبَّحَنا ربِّي ومسَّانَـا
ربُّ الحنيفـةِ لم تَنْفَدْ خَـزائِنُهـا ... مَمْلُوءَةً طَبـق الآفـاق سلطانـاً

فالله جلَّتْ قدرته هو الذي ينبغي أن يحمد على آلائه ونعمه التي يسبغها على المرء صباح مساء ، وهو تعالى رب الحنيفية التي عمّت الدنيا بنورها وهديها .

ويُنَوِّهُ أيضاً بعظمة الله الكبير المتعالي الذي له البقاء الدائم ، والخلود المستمر ، فالكل سيفنى ويبقى الله الواحد الأحد[١٨]:

ألا كُلُّ شيْءٍ هالِكٌ غيرَ ربِّنـا ... ولله مـيراثُ الذي كـان فـانيـاً
وإنْ يكُ شيْءٌ خالِـداً ومُعَمَّراً ... تأمَّلْ تَجِدْ مِنْ فَوْقِهِ الله باقيـاً

وإذا كان المشركون يعتقدون في آلِهَة عِدَّةٍ ، تمتلك قدرات مختلفة ، فإن الشاعر لا يرى فوق الله تعالى أيَّ شيء كان ، كما لا يرى أيَّ إله يشاركه في العبودية والربوبية[١٩]:

إلى الله أُهْـدي مِدْحَتي وثنـائِيا ... وقولاً رَصيناً لا يَني، الدهرَ، باقياً
إلى الملكِ الأعلى الَّذِي ليس فوقه ... إلـهٌ ولا رَبٌ يكـون مُـدَانيـاً
وأشهدُ أن الله لا شيْءَ فوقـه ... عليًّـا وأمسى ذكْـرُهُ متعـاليـاً
رضِيتُ بك اللَّهمَّ ربًّا فلنْ أرى ... أدِينُ إلهـاً غيرَكَ، الله، ثـانيـاً

ولئن كان الحجُّ إلى بيت الله الحرام أهَم مشاعر الحنيفية المتبقية من عهد إبراهيم الخليل فإنَّ الشاعر لايزال مُتَمَسِّكاً به ، ومُعْتَقِداً أنه يوجد في العرب من يخلص في حجه لله وحده ، لا يبتغي بذلك سوى غفرانه ورضوانه[٢٠] :

إنِّي أعوذُ بِمَنْ حَجَّ الحَجِيجُ لَهُ والرافعونَ لدينِ الله أَرْكاناً
مُسْلِمِين إليه عِنْدَ حَجِّهِمُ لَمْ يَبْتَغُوا بِثوابِ الله أَثْمانَا

ويبدو أن أمية قد قابل زيدَ بن عَمْرٍو ، أو أنه قد سمع به وبتمسكه بالحنيفية ، وإخلاصه العبادة لله وحده ، ولعل ما يرجِّحُ هذا الأمْرَ وجودُ شعرٍ منسوب إلى أمية يرثي فيه زيداً ، ويشيد بإيمانه وعقيدته[٢١].

ـ **أبو قيس بن الأسْلت** :

أما أبو قيس فهو ثالث أولئكم الحنفاء ، واسمه صَيْفِيُّ بن الأَسْلت بن جُشَم ، من الأَوْس[٢٢]، وكان يَتَألَّهُ في الجاهلية ، ويَدَّعِي الحنيفية ، كما كان شاعراً من شعراءِ الأوْس ، وزعيماً من زعمائهم إذ أسندوا إليه حربهم يوم بُعاث[٢٣]. وقد أدرك الإسلام، بَيْدَ أنه اخْتُلِفَ في إسلامه، فقيل : إنه أسلم عند احتضاره، وقيل: إنه لم يسلم، كما اخْتُلِفَ في وفاته، فجعلها بعضهم في السنة الأولَى للهجرة ، وأخَّرها بعضهم إلى عام الفتح[٢٤].

وقد أوردنا في الفقرة الأولى بعضاً من شعره الذي دافع فيه عن الرسول ﷺ ، ودعا فيه قريشاً أَنْ تَكُفَّ عن غيها وضلالها ، وتتبعَ الدين الحنيف الذي يوافق ماجاء به المصطفى عليه السلام .

ومن ثَمَّةَ فإننا نجد لديه عقيدةَ التوحيد نفسها التي وجدناها عند الشاعرين السابقين ثم هو أيضاً ـ شأنه شأن زيد بن عمرو ـ يرفض اليهودية والنصرانية ، ويتمسك بالحنيفية ، ويراها الدين الحق ، فيعبر عن ذلك شعراً[٢٥]:

أربَّ النَّاسِ أشياءُ أَلَمَّتْ يُلَفُّ الصَّعْبُ منها بالذَّلُولِ؟
أربَّ الناس أمّا إذْ ضَلِلْنا فَيَسِّرْنا لمعروفِ السَّبِيلِ

فلولا ربُّنا كُنّا يهوداً ... وما دِينُ اليهودِ بذِي شُكُولِ
ولولا ربُّنا كُنّا نصارى ... مع الرُّهْبانِ في جَبلِ الجليلِ
ولكنّا خُلِقْنا إذْ خُلقنا ... حنيفاً دينُنا عن كلِّ جيلِ
نسوق الهَدْيَ تَرْسُفُ مُذْعِنَاتٍ ... مُكَشَّفَةَ المناكبِ في الجُلُولِ

ولعلَّ الشاعر في هذه الأبيات قد أعطى الصورة الصادقة عن جماعة الحنفاء ، التي أَنِفَتْ من عبادة آلهَة متعددة ، تمثلها أوثانٌ صَمَّاءُ لا تملك ضراً ولا نفعاً . كما عبّر عن بحث هذه الجماعة في الديانتين اليهودية والنصرانية ، وعدم اقتناعها بهما ، لتركن أخيراً إلى دين إبراهيم ، الداعي إلى توحيد الله وعدم الشرك به . ويلاحظ أن الشاعر هنا أيضاً يشير إلى الحج الذي هو أهم مناسك الحنيفية المتبقية ، بل لعله المنسك الوحيد المعروف والمشهور بين العرب ، من تلك الديانة القديمة .

ونخلص مما مر بنا أن الحنفاء في الجاهلية جماعةٌ لها منهج واحد ، تسير عليه ، واعتقاد واضح تؤمن به ، إذ ترى أنها تسير على نهج إبراهيم الخليل، وتعتقد في إلهٍ واحد لا شريك له هو الله ، وتقوم بما وصل إليها من شعائر حجّ إبراهيم ومناسكه .

وفضلاً عن ذالك فإن ثَمَّة أمْراً جديراً بالاهتمام ، ينبغي لنا أن نذكره ، وهو أن الحنيفية لم تكن مقتصرة على قبيلة معينة من قبائل العرب ، وإنما كانت معروفة في أنحاء عدة من الجزيرة العربية ، ولا أدل على ذالك من أن شعراءَها الذين عرضنا لهم كانوا من قبائل مختلفة ، فزيد من قريش ، وأمية من ثَقِيف ، وأبو قيس من الأَوْس .

وسرعان ماجاء الإسلام فأثبت عقيدة التوحيد ، وقضى على كل ما يناقضها من الشرك وتعدد الآلِهَةِ ، ليبقى الدينُ كلُّه خالصاً لله الواحد الأحد الفرد الصمد .

كلية الآداب ـ جامعة حلب ـ الدكتور عبدالغني زيتوني
مدرس الأدب القديم

الحواشي والمصادر :

(١) «لسان العرب»: مادة (حنف)، لابن منظور، ط بيروت ١٩٥٦ .
(٢) المصدر نفسه: مادة (حنف). و«تاج العروس»: مادة (حنف)، للزبيدي ط بيروت. و«جمهرة اللغة»: مادة (حفن)، لابن دريد، ط حيدر آباد ١٣٤٥هـ .

(٣) «لسان العرب»: مادة (حنف). وشهرا صفر: يقصد صفر والمحرم. والضمير يعود على الناقة، وأراد أنها قد أقامت بهذا المكان إقامة المتحنف على هيكله مسروراً بعمله وتدينه لما يرجوه على ذلك من الثواب .
(٤) «تاج العروس»: مادة (حنف) .
(٥) «الروض الأنف»: ٢٩٢/١ ، للسهيلي ، تحقيق عبدالرحمن الوكيل، ط القاهرة ١٩٦٧ . و«جمهرة اللغة»: مادة (حفن) .

(٦) «السيرة النبوية»: ٥٥٣/١ ، لابن هشام ، تحقيق السقا والأبياري وشلبي ، ط مصر ١٩٥٥ .
(٧) (آل عمران): الآية ٦٧ . و«تفسير الطبري»: ٣٠٦/٣ ، ط مصر ١٩٥٤ .
(٨) «ديوان أمية بن أبي الصلت»: ص ٣٩٣ ، تحقيق د. عبدالحفيظ السطلي ، ط دمشق ١٩٧٧ .
(٩) «السيرة النبوية»: ٢٨٤/١ . وأحرام الظباء : هي التي يحرم صيدها ، والشوازب : جمع شازبة ، وهي ضامرة البطن ، يصف الظباء . والذوائب : الأعالي .

(١٠) (البقرة): الآية ١٣٥ ، وآل عمران : الآية ٩٥ ، والنساء : الآية ١٢٥ ، والأنعام : الآية ١٦١ و(يونس): الآية ١٠٥ ، و(النحل): الآية ١٢٠ و(الحج) : الآية ٣١ ، و(البينة): الآية ٥ .
(١١) «السيرة النبوية»: ٢٣١/١ . و«صحيح البخاري»: ٥٠/٥ ، ط مطابع الشعب مصر ١٣٧٨هـ . و«تفسير الطبري»: ٣٠٦/٣ .
(١٢) «السيرة النبوية»: ٢٢٦/١ . ووردت بعض هذه الأبيات في «نسب قريش»: ص ٣٦٤ ، لمصعب الزبيري ، تحقيق أ. ليفي بروفنسال، ط القاهرة ١٩٥٣ و«جمهرة نسب قريش» ص ٤١٧ ، للزبير بن بكار ، تحقيق محمود محمد شاكر ، ط بيروت ١٣٨١هـ .

(١٣) «السيرة النبوية: ٢٣٠/١ . (١٤) المصدر نفسه: ٢٢٥/١ .
(١٥) «خزانة الأدب»: ٢٤٦/١ ، للخطيب البغدادي ، تحقيق عبدالسلام هارون ، ط القاهرة ١٩٦٨م .
(١٦) مقدمة «ديوان أمية بن أبي الصلت»: ص ٤٣ ، وفيها دراسة مسهبة عن حياته وشعره .
(١٧) «ديوان أمية»: ص ٥١٦ . (١٨) المصدر نفسه: ص ٥٢٨ .
(١٩) المصدر نفسه: ص ٥٣٨ . (٢٠) المصدر نفسه: ص ٥١٨ . (٢١) السيرة النبوية: ٢٣٢/١ .
(٢٢) المصدر نفسه: ٥٨/١ . و«الاشتقاق»: ص ٤٤٨ ، لابن دريد ، تحقيق عبدالسلام هارون ، ط مصر ١٩٥٨م .
(٢٣) يوم بعاث: هو يوم للأوس على الخزرج ، وكان قبل الهجرة بخمس سنين .
(٢٤) «خزانة الأدب»: ٤١١/٣ .
(٢٥) «السيرة النبوية»: ٤٣٨/١ . وترسف : تمشي مشي المقيد . ومذعنات : منقادات . والجلول : جمع الجُلّ ، وهو ماتُلْبَسُهُ الدابة لتصان به .